

(18) فاضافوا روائع جديدة الى المائر الاموية تجلت في المنارة الخالدة باشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتيبة بمراكش والقصور الفخمة والحدائق الفناء (على مزار مسرة المرابطين المعروفة الآن بالمنارة ونغرب مثلا لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع الى عبد المومن (19) والذي قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي (Terrasse et Basset) اجمل ما ابدعه الغرب الاسلامي بل العالم الاسلامي « ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الاندلسي والفن المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء (20) وبذلك تميزت الوحدة الحضارية بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصاراة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون وبذلك يكون في وسعنا اعتبارا لهذه المعطيات ان نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال اسماء الحرف التي ظلت الى القرن الحالي الصناعة الاساسية لنصف سكان الحواضر (21) فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي نظرا تقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية (22) او حضرية ممدودة مثل بعدي (اي اسكاني بدوي) وخطاطري (حفار الخطارات اي

السواقي الصحراوية) وتكموني (صانغ) وقراشلي (حلاج) في حين توخر بالالفاظ العربية التي حرف بعضها تسهيلا للنطق بها مثل بامهاود (اي حكم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكسي (مصلح المنجانات) وغواسلي (بائع الفاسول) وظل معظمها مما يتيف على المالة في قلبه العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبغ) والحرار والحرث والحمار والحمالي (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرمح المائية) والطاوني (صاحب الطحنة او الطاونة التي تدار بحركة بفل او حمار) والرخامي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط اي السلال) والمشاب والتطارني (بائع اقطران والبلاد (صانع اللبذ) . اما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فاذا استثنينا بعض الدخيل فان الكلمات البربرية اقل بينما تظهر الفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من اصل اندلسي) ودار الميمان والمرفطار وسوق الفرش (اي صنع المخاد والحشاي) ومناصر الزيت وكعب فزال (فارسي) والبلاجة (صانع الاقفال) وصناع الاسلحة الاختصاصيين مثل الجمابية (لصنع جباب المسدات) والسراير

(18) وقد امر المنصور الموحد « بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وامر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت . . » (البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 81) ففي زمن المنصور والناصر الموحديين كان عدد الاطرزة بفاس 3 094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصبافة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وافران الخبز 1170 واحجار صنع الكافد (اي الورق وهي كلمة تركية) 400 ودور الفخارة 180 (زهرة الاس للجزنائي ص 33) وقد بلغت الارحى بفاس 600 في القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام 626 هـ في معجمه ج 6 ص 331)

(19) المسند الصحيح الحسن ص 65 - 1925 .

(20) ويليام مارسلي (كتابه حول تاريخ الفن الاسلامي

(21) راجع احصاء قام به ماسينيون عام 1923 - 1924 في كتابنا (معطيات الحضارة المغربية ج 2 ص 78 . وفي كتابه (الحناطي الاسلامية - باريس 1925 ص 38 وقد كان نظام الحناطي (اي النقابات العمالية) ينسج في جميع المصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات

(22) الجاحظ يسمي العمامة لغة المولدين او البلديين (البيان والتبيين ج 1 ص 111)

فرت المنسوجات العربية الاقطار الاوروبية حتى اضطر احد ملوك فرنسا الى تحديد ايرادها « اعراف المسلمين وعاداتهم » (ص 247) .

وقد شمل التمریب معظم المواد والالات والاجهزة والادوات التي استعملها الصانع المغربي الى العصر الحديث وكفي القاء نظرة على معجمنا « الاصول العربية في العامية المغربية » للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب في هذه المفردات التي نجد منها في الصفحات الاولى للمعجم الفاظا كالاغشي (مخزول الاسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه (تقيضه) والتكة والتنجرة والثومة (القرط) والشح والحنبل (لفظة يمنية) والحنوط والخرقرة والخميرة والخنجر ، ثم ان الفكر العلمي الاندلسي الذي حماه البلاط الموحدى بمراكش لم يكن ليخلو من مظاهر اجتماعية تمثله مثال ذلك البيمارستان (24) الذي احتوى على « النقوش البديعة والزخارف المحكمة » وهرست فيه « الاشجار المشجومات والماكولات » واجريت فيه « مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك في وسطه احداها رخام ابيض » وما له من « الفرس النفيسة من انواع الصوف والكتان والحريير والاديم » وتزويده بالادوية والصيدالة « لعمل الاشربة والكحول » مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانبة العلاج ورعاية المنصور الموحدى الشخصية له بزيارة اسبوعية لتفقد حال المرضى وقد اشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذى بدى فى نظره مستشفيات باريس فى هفتوان القرن العشرين (25) .

وسترى كيف بلغ المصطلح العلمى اوجهه فى هذه الفترة التى ماوى خلالها العرش المغربى فى ظلال مراكش الحمراء اقطاب الفكر الاندلسى الذين مهدوا بكشونهم العلمية فى شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث بأوربه حيث ظلوا اساتذتها الرموقين طوال قرون .

لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الافمدة) الصقالة والدهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزرادخية (باعة القماش من نوع لزودخان) والنيارة (صانعو نول النسيج) واذا خلدنا مثالا لباقي المدن المغربية فى شخص اصغر مدينة وهي ميناء ازموور لاحظنا وجود معظم هذه الحرف عدا التنويع فى النسيج وحرف جديدة لحرفة البغازة وهم بائعو السمك بالجملة والشراحة بهم مجففو الحوت ، وهناك الفاظ مغربية اندلسية ابتكرة نجدها فى كتابت تطور الفكر والحضارة الخ . شمل القبال والقابض بدل الجمركي او الجايى وقد استند السيد محمد كرد على لهاتين لكلمتين لتندليل على اصالة الابداع اللغوي فى المغرب والاندلس (عجائب اللهجات - مجلة مجمع اللغة العربية ج 7 ص 128 عام 1953) ويلوح لاول هلة من مقارنة نوع المصطلح فى عاصمتى الشمال الجنوب مدى تاثر فاس بالحضارة الاندلسية حيث دات تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص ادق فى مض المرافق الصناعية بالعاصمة الادريسية ولا بدع فى ذلك اذا اعتبرنا ان مدينة فاس اصبحت فى عصر لموحدين « حاضرة المغرب » الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة « ولا يوجد فى الدنيا اكثر رافق واوسع معاش واخصب جهات منها » كما قول المراكشي بشيء غير قليل من الضلو على ان لفن بفاس اصبح مزيجا للكثير من العناصر لمربية فاذا ضربنا مثلا بالزليج الذي عرف فى الشرق الفسيفساء لاحظنا انه نوع من الترصيع الخزفي صله من الاندلس كان يصنع منه بالاندلس نوع من لمفضض المعروف فى الشرق بالفسيفساء (التفتح نقلا عن ابن سعيد ج 1 ص 187) والترصيع هو التكفيت (كلمة تركية) لها مرادفات منها التليبس والترسيب والتنزيل اصحها عند العرب فى العهد العباسى التطبيق وفن الترصيع سوري فى اصله عرف باوروبا الى الان بالفن الدمشقي Damasquinage وقد دخل الفن العربي الى ايطاليا وبعد الحروب العليبية

(23) « المعجب فى تلخيص اخبار المغرب » طبع بسلا عام 1357 - 1938 (ص 213 - 221) لعبد الواحد المراكشي

(24) نفس المصدر ص 177

(25) الموحدون Les Almohades للسيد Millet - طبعة 1927

غير ان هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لان البداية (اي الارياك والسواد) ظلت تسيب في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت ثرائها لغويا اصيلا ما زالت الحواضر تطعمه تدريجيا استجابة لقتضيات العصر وسنرى كيف ان قبائل عاشت في ارباض حواصم كرباط الفتح ظلت عالقة الى عهد حديث بترائها اللغوي الجاهلي الخالي من اية شائبة الامر الذي اسفر عن نوع من الخل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث .

وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الانظمة العسكرية العثمانية كما دخلت الى المغرب افواج المهاجرين الاندلسيين (29) بلغت في مدن كتطوان اربعين الفا فيهم الاديب والعامل والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح واذا كانت هذه المظاهر تنمكس على العادات الاجتماعية والمآثر العمرانية ، فاننا نلاحظ في خصوص الازياء ان سكان حواضر اندلسية مثل فاس وتطوان والرباط اصبحوا يضعون على رؤوسهم قلائس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (اي خيوط مدلاة او النواصة) بعد النفي العام اوائل القرن السادس عشر الميلادي لان الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالاندلس قبل عصور التفتيش الصليبي (Inquisition) حيث اجبر الاسبان العسرد المسحين على التميز بشارة زرقاء

اما المريثيون الذين كانت لهم ارقى المقومات الملكية بالمغرب وانهاها واحقها بتبني التراث الموحد في افريقية والاندلس فان مغربهم الزاهر كان منطلق الاشعاع في مجموع الشمال الافريقي (26) حيث تبلورت مدينتهم الحضرية في اروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجيء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة في عهد ابي الحسن المريني 731 هـ - 752 هـ 1331-1351م الذي يعتبره الغربيون اقوى جاهل في القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع فرناطة النصرية واردة الاندلس ذبول عززت التراث المشترك الذي ما لبث ان انتقل بكامله مع رجال الهجرة الى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الاندلسية الموحدة . وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لاول مرة مدارس هي عبارة عن احياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف المدن كفاس وتلمسان والجزائر (27) علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم ويمكن ان تقدر من خلال وصف (28) لاحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والانواع الجديدة من ارباب الصناعات كالبنايين والنجارين والجباسيين والزليجيين والرخامين والقتويين والدهانين والحدادين والصغارين والجنران المنقوشة بالجبس والزليج والارز المحكم التجارة والصناعات المشتركة كالتوريق والتسطير) مع فروس الرخام والزليج وطباير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (اي الابواب) والخزائن بنحاسها الموه بالذهب والحديد المقصود «

(26) مارسى Marçais - في كتابه « L'Art dans l'Islam » حول تاريخ الفن الاسلامي ص 134 ، وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتاثير الفرناطي الموسيقى الاندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة الظهير بمعنى الرسوم الملكي .

وقد اسهم العلماء والادباء في الصناعة والتجارة مما اكسب الكثير من المصطلحات طابعا فصيحاً ومنهم محمد الفساني الذي كان تاجراً بقيصرية واسفي يدبر حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطأ والسير والنحو والاداب واللغة وهو من رجال القرن السابع (تونس عام 663 هـ) (الدليل والتكملة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله من الذي كان يتممش (كلمة مغربية معناها يتممش) بعمل دود القز بفاس (نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني ج 1 ص 197) .

(27) نخب من « المسند الصحيح الحسن في مآثر ابي الحسن » لابن مرزوق .
(28) نفس المصدر حيث اشار ابن مرزوق الى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بأنه رسم في كافد لتقدير الساحة (اي المساحة).

(29) في عام 1019 هـ هاجرت الوف الاندلسيين الى فاس والوف الى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاغراب ونهبوا اموالهم في تلمسان وفاس وسلم اكثرهم في تونس وتطوان وسلا ولسعة الجزائر ووصل جماعة الى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النسخ ص 101) .

ولباس البياض في مناسبات وفصول خاصة هو أيضا عادة أندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (أي العنصرة كما تسمى في العدوتين) أي 24 يونيو وذلك إلى أول أكتوبر خلال ثلاثة أشهر متوالية (النسخ ج 2 ص 752)

أما في الحقل العمراني فإن « قصر البديع » الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ - 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته فقد ظهرت مع فنون طريفة مصطلحات جديدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية (31) كتبت في إبهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض تذكرنا بروائع الأندلس : فمن شعر أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف هذا الفن قوله :

فإنها والتبر سال خلالها
وشي وفضة تربها كافور
وكان أرض قراره ديباجة
قد زان حسن طرازها تشجير
وكان موج البركتين أمامه
حركات سحب صافحته دبور
صفت بصفتها تماثل فضة
ملك النفوس بحسبها تصوير

وقد كتب بجدوان المصرية (32) المظلة على الرياض :

باكر لدي من السرور كؤوسا
وأرض النديم أهلة وشموسا
وكان هذا الإطار العمراني الرائع مسرحا
لحفلات شعبية بمناسبة حفلات ذكرى المولد النبوي
يجري خلالها إصدار أبناء المعوزين ويتبارى
الشماهون في تطريز شموع « يحملها صحافون -

كما يقول الفشتالي في مناهل الصفا - محترفون يعمل خدور المرائس عند الزفاف » وهي على رؤوسهم كالمذاري تنبعا الأبطال والإبواق وأصحاب المعازف والملاهي حتى تسوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وأمامه شموع من بياض كالدمى وحمرة جليت في ملابس أرجوان وخضر سندسية في حسك ومباخر ترنم خلالها نوبات منشدي المولديات وأشعار الصوفية وتلى قصائد شعراء الدولة يفرلها ونسبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي عهده في ترايب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الإمام المفتي ثم الوزير ثم الكتاب المخزيون ويختم الحفل بنشر « خوان الأطممة والموائد » و « توزيع الإعطيات » وكان هذه القصور الباذخة في فرشها الحريرية ونمازقها المصطفة واستارها وكلها وحجالها المخصوصة بالذهب وحانطياتها ووصفانها وأعالجها بأقبيهم المخصوصة ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة (33) - صورحية لفخفة استمرت معالمها في القرن العشرين في بلاط الملوك العلويين وقصور الأثرياء حيث استفيض عن القناع المائتية والبنسية المذهبة وعن الأواني التركية والهندية والطوس والإباريق والصحاف ومباخر العنبر والمواد الشرقية بأومية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف أنحاء الدنيا شرقا وغربا لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي أفصان الرياح الفضة وماء الزهر والورد . كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الأندلسية الرائعة التي تسحر الألباب بنغماتها الشجية وتلاحينها الإخاذة والوانها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التي تتردد في حنان وخشوع على السنة الخاصة والعامة لتسهم في تحريك نبرات القلوب وتوعية الروح وتأجيج الشعور وتوقير الشراء اللغوي في الدارجة والفصحى على

(31) أي التي فيها خمسون ذراعا بالعمل أي بالنقش وكانت الجدران تحلى أحيانا بأنواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الأصل . وفي سلانماذج من أصل فارسي أو شامي ويلاحظ في تطريز الرباط تأثير الأنسجة الأوربية وكذلك في أزمور التي يرجع تاريخ نماذجها الإسبانية الإيطالية إلى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس ج 21 عام 1935) .
وهناك بنافس تطريز علجي الأصل أدخلته إلى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات اللواتي تسرى بهن أهل فاس أما التطريز التطواني فهو من أصل بلقاني .

(32) المصرية أي الغرفة الواقعة في طبقة عليا ولعل لوجود طبقات في (الابنية منذ القديم بمصر انرا في التسمية .

(33) راجع النسخة المسكية في السفارة التركية لعلي بن محمد التامجروني .

السواء فكم من تعابير تخلت الإلحان كانت أرسخ في البواطن وأملك للوهي وكمن من الهنات ساحرة ردها الرضيع في حبه وربة الخدر في حجلتها كان اثرها اوقع في النفس ولفظها اعلق باللسان من كل قعيد يلتن في الكتاب او درس لغوي يلتقى في حلقات المعلم .

واذا كان عهد السعديين قد نفذت معالمه بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية فان عهد العلويين الذي اقيمت فيه نفس القصور والبساتين مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وجنان رضوان وأجدال بنفس انبذخ قد اتجه الى دعم الكيان بالقصبات والقلاع ومن ارووع ما يدهك في قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس عاصمة المولى اسماعيل جمعه بين فخفة البلاطات الملكية وضخامة التحصينات بابرأها ومدافعها ازاها البرك الفيضة للتمرير والانبساط في فلكها وزوارقها وكانت اهراء القصر تضم اثني عشر الفا من خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل للبلاد اكتفاء ذاتيا وميزانا تجاريا متوازنا وقد بدانا بالرغم من أصالة اللغة العربية بالمغرب. نسمع في معماريات العلويين وعمرانياتهم مصطلحات جديدة فيها الكثير من الدخيل كالتقنايط (اي الهياكل) المقبوة في الاهراء والاصطبلات المسقفة بالبرشلة اوهي نوع من الزوائد والعوارض (Pignon) وسواني الماء الدائرة (اي التوامير المائية) والقرايمد علاوة على المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الاشباز اى حفر الخنادق الحربية) وصنع البارود والكور والبنب (اي القنابل والتدائف) ونصب المهاريس والكراريس (اي المدافع المجرورة والضوبلى) لتحرير الثغور المحتلة وبمات الباشدورات الى طوافية (جمع طافية) الاصبنيول او البرتفال او «النجليز» لاحكام الصلح ومفاداة الاسرى البلوط بالبلوط واليكانجسي باليكانجي والبحري بالبحري دعما للطبجية (اي

المدفعية) والبحرية المفزية بفلاطها (سفنها الحربية) وفراكلها (اي حراقاتها) ومراكبها القرصانية. ودخلت الى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل الكشينة والباصبورط (الجوان) والطنبور والكرتينة (الحجر الصحي) والمحلة (اي المسكر) وصاكة الامشار (اي رسوماها) وصقالة (اي برج) والتوافل (الرماح) وتفرق البونب (اي انفجار القنابل) وابستيون (34) وانواع النقود كالبندقي في اربعين اوقية من الذهب والفضلون (Doublon) في اثنين وثلاثين من الريال (الريال Real) فيه عشرون اوقية) والبسيطة (خمس اواق) والموزونة (ربع الدرهم الرباعي اي نصف القرش) والسنجق وبقسماط (سكوت) وكل تلك مظاهر للمعجمة التي بدا المجتمع المغربي يتسم بها حيث « اتخذ ذوو اليسار - كما يقول الناصري (35) المراكب الفارغة والكسي الرقيقة والدخائر النفيسة وتائقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة الاعجمية » التي تمزت مع ذلك بمقتبسات غريبة صالحة مثل فابريكة (اي مصنع) السكر وفابريكة تزديح البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن في البحر) باشقار قرب طنجة وبابور البر (التطار الحديدي) والتفراف وهكذا الى غير ذلك وهكذا بدأت تجلى في الافق المغربي على متبة القرن العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قلبها الافرنجي دون تعديل وسنرى بحول الله خلال حديثنا عن تطور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد الاستقلال كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي العروبة مندما ظهرت الصحافة المغربية واشرايت الاعناق الى ما يرد من الشرق العربي وخاصة من الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت الى جوهر الاسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي الحديث .

(34) استعمل الناصري في تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدا يستعملها وانذاك سلفه من المؤرخين وقد استعرض الناصري (ص 224) النظام العسكري عند الاتراك فلاحظ ان اهم مسا يمتازون به هو العزوف عن العادات الاجنبية والمصطلحات العجمية حيث « تمت المصيبة في مسكر المسلمين بالتخلق بخلق المعجم واذا كان اصل العمل ماخوذا من المعجم فليجتهد المعلم الحاذق في تعريبه » . (راجع الاستقصا الجزء الرابع)

(35) الاستقصا ج 4 ص 233 بصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي في معرض باريس عام 1285 هـ (اي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من انتاجه كالسروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي والمطينين الذين يباشرون ترصيعه

الفكر الثقافي

(أ) اللغة والأدب

حتى تقوى ملكته في الأدب واللغة فإذا عاد إلى المغرب كن أسهامه أوفر وأبلغ في تحقيق التزاوج الفكري بين جناحي العروبة والإسلام غير أن الفكر الأدبي في هذه الفترة كان لا يزال في مخاض قد طفت عليه الاتجاهات الدينية والفقهية والمقائدية فسمكو المدراري بسجلماسة قد سمع من عكرمة في نفس الوقت الذي أخذ محمد القيسي عن مالك وسفيان وحمل أبو جيدة الفاسي في أوائل القرن الثالث التفاريع الذهبية فكان التبادل محدودا بين الشرق والمغرب عدا عن طريق الأندلس إلى أن انبثق العهد البربري حيث بدأت رحلات رسل الفكر تتوالى من الشريف الإدريسي إلى ابن جبير وابن رشيد والمبدري وابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزان ومات الآخرين (2) الذين أساروا أمجاد زملائهم في العواصم الإسلامية بما أنتجته قرائعهم وأبدوه في مناظرهم من عمق في الإدراك وبعد في النظر ودقة في التحليل في أسلوب كلاسيكي أمسى موحدا حتى ليصر على القاري أن يتبين بوضوح جنسية الكتاب والقصيد والخطاب لتناسق المصطلحات وتجاوب الدلالات وإذا كانت هناك فروق نسبية في منهجية التفكير والوان التعبير فهي تكمن خاصة في الدراسات العلمية التي سنستعرض بحول الله جوانب منها من خلال الكشوف المستحدثة في الأطار المغربي .

وقد بلغ التجاوب مبلغا حدا بعض نقاد الفكر إلى التنظير بين أدباء وشعراء من الشرق والمغرب الأقصى والأندلس فمند العصور الأولى حدثنا البكري عن محمد بن حبوس الفاسي الذي نهج في منحاه الشعري نهج محمد بن هانيء في « قصد الألفاظ الرائعة والقماقم المهولة وإيثار التقدير » بينما لقب ابن هانيء بمثنبي المغرب وكان الشرق يتغنى بشعر المغرب والمغرب يردد تلاحين الشرق فهذا أبو هارون موسى بن عبد الله الإغماتي الذي بلغ في جولته بلاد سمرقند يقول :

لعمر الهوى أني وإن شطت النوى
لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فان كنت في أقصى خراسان ناويا
فجسمي في شرق وقلبي في غرب

(1) راشد مولاه هو الذي أقرأه القرآن وهو ابن ثمان سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه والدين

واللغة ورواية الشعر وأمثال العرب وحكمها (الاستقصا ج 1 ص 70)

(2) راجع بحثنا « رسل الفكر بين المغرب والشرق » (معطيات الحضارة المغربية ج 1 ص 72) .

وهذا المهدي بن تومرت يتمثل دوما بقول
المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
ومن شعره :

أخذت بأعضادهم إذ ناوا
وخلفك القوم إذ دموا
فكم أنت تنهى ولا تنتهى
وتسمع وعظما ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى
تسن الحديد ولا تقطع ؟

وكانك وانت تسمع خطاب أحمد بن عطية لعبد
المومن الموحد تلمس نبرات شعر حطيثة وهو
يتشفع الى عمر بن الخطاب في فلداته :

وصيبة كفراخ الورق من صفر
لم يالفوا النوح في فرع ولا فنن
قد اوجدتهم اباد منك سابقة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وإذا استثنينا محاولات نادرة فان المغرب لم
ينجب فحولا امثال المتنبي والبحتري وابي تمام ولا
امثال ابن خفاجة الاندلسي في وصف الطبيعة :

ومن هذه المحاولات التي اكتفت بوصف حركات
خارجية دون استبطان الخواص الدقيقة واستكناه
الخلجات قول ابن مجير يصف خيل المنصور وكانه
يستعرض ما استعرضه الشعالي في « فقه اللغة »
من ترايب وتدرجات في الالوان مع مجاز رقيق :

مراسي اغنتها الحبول من الحلى
فلم تبغ خلخالا ولا التمسست وقفا
فمن يقق كالطرس تحسب انه
وان جردوه في ملاءته التفا
واباق اعطى الليل نصف اهابه
وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا
فاذ حازه دلى له الذيل والعرفا

واشقر مع الراح صرفا اديمه
واصفر لم يمسح بها جلده صرفا
واشهب فضي الاديم مدثر
عليه خطوط غير مفهمة حرفا

وهذا التسراد اللغوي الذي لم يكن يخلو من
روائع بدئية قد انعكس على لغة العامة في مزاولاتها
اليومية حيث دخلت في معجمها الدارج اسماء
عشرات الالوان كالادكن والابلق والارقط والاشخم
والاشقر والاشهل والافر والمبرقش والخمري
والبريش (اي مختلف الالوان) (3) .

وتسم خطب السياسيين المرابطين منهم
والموحدين بالطابع الصوفي مع الضرب على نفس
الاوتار فمن قول عبد الله بن ياسين : « اياكم ان
تجنوا وتفشلوا فتذهب ربكم وكونوا الفة واعوانا
على الحق واخوانا في ذات الله واياكم والمخالفة
والتحاسد على طلب الرئاسة » . ومن نداء وجهه
المنصور الموحدي لجيشه بالاندلس يحضه على
الاستماتة : « شمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين
في جهاد المشركين فمن مات منكم مات شهيدا
ومن عاش عاش غانما ماجورا حميدا » . ففي كليهما لون
من المفاهيم وضرب من التعبيرات كاد يصطبغ بها الادب
في شتى مجاله فاستمع للقاضي ابي حفص بن عمر
يتحدث عن علم القدماء : « اياكم والقدماء وما احدثوا
فانهم عن قولهم حدثوا ، اتوا من الافتراء بكل اعجوبة
وقلوبهم من الاسرار محجوبة » .

ومن الاخوانيات (4) التي ضاهت اروغ ما
عرفه الشرق في العصر الفني للنشر رسالة للقاضي
عباس الى الفتح بن خاقان جاء في مطلعها : « عمادي
ابا نصر منى الوزارة ووحيد المعصر هل لك في منة
تفوت الحصر تخف محملا وتبلغ املا وتشكر قولنا
وعملا شكرا تترنم به الحداة ثقلا ورملا .. الخ » .
واخرى من ابن هانيء السبتي متنبي المغرب اجاب
بها ابا القاسم الشريف عن قصيدة اهداها اليه جاء
فيها : « .. والان لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا
منهج عكست القضايا فلم تنتج فتبذل القلب الذي
ولم يرشح القلم الزكي وهم الانعام وهم الاحجام
وتمكن الاكداء والاجبال وكورت الشمس وسيرت

(3) اقتصرنا على نماذج قليلة من معجمنا « الاصول العربية والاجنبية للعامة المغربية »

(4) ومما امتازت به الاخوانيات عند اهل المغرب كون الخطاب فيها خطاب المواجهة مثل انت وانا ..
وربما خاطبوا الواحد منهم بيمين الجمع .. قال ابن شيت في معالم الكتابة « ولا يصرف ذلك
لغيرهم اصبح الاعشى ج 8 ص 148 » .

وقال الامام السهيلي عندما خرب العدو مستقط
رأسه سهيل :

يا دار ابن البيض والارام
أم ابن جيران علي كرام ؟
راب المحب من المنازل انه
حبا فلم يرجع اليه سلام

وكان ابرز ما يمتدح به الملوك اباؤهم وسهرهم
الدائب على حفظ كيان الوطن ولو اداهم ذلك الى
تقلد الحسام والاستشهاد فقد قال ابو بكر محمد بن
صاحب الصلاة عندما قام خطيبا في وفد الاندلس
مام الامير عبد المومن الموحدى :

هم الالى وهبوا للحرب انفسهم
وانهبوا ما حدث ايديهم الصفدا

وقد كان لامثال هذه الحماسيات اثر بليغ
حيث اذكت نفوس الجماهير والهبت احساسهم
واهابت بالملوك لنجدة الاندلس المهتد حتى قال ابن
الخطيب موجها مديحه لسلطان المغرب ابي عنان
المريني .

والناس طرا بارض اندلس
لولالك ما وطنوا ولا عمروا

وجملة القول انه وطن
في غير عليك ما له وطر

وقد اوى ملوك المغرب لاجئي الاندلس ومهدوا
لهم سبل الحياة الناعمة حتى قال ابن زمرك متشكرا
للسلطان ابي سالم المريني :

كم من طريد نازح قدفت به
ايدي النوى في الفقر رهن سفار

بلغته ما شاء من اماله
فسلا من الاوطان بالاوطار

صيرت بالاحسان دارك داره
تمت بالحنى وعقبى الدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله :

ودم والنى تدنى اليك قطيفها
ميسر اوطار ممهد اوطان

الجبال وعلت سامة وغلبت ندامة وارتفعت ملامة
وقامت لتوهي الادب قيامة حتى اذا ورد ذلك المهرق
(5) وفرغ لخصه الورق تفنى به الحمام الاورق
واحاط بمداد مدائه الفصص والشرق وامن من
الغصب والسرقة واقبل الامل وذهب لاقباله
الفرق ... »

ولم يكذب بيزغ فجر العصر المريني حتى بدأ
المزيج الاندلسي المغربي يتبلور فظهر علاوة على ابن
خلدون امثال ابن الخطيب وابن زمرك ومشرات
الشعراء والمؤرخين والادباء الذين اذكت شعورهم
نكبات الفردوس المفقود وقد افاد الادب المغربي من
هذا الفيض الذي غمر العواطف وانطق اللسان
وحرك الافلام واسال الشاعريات؛ ولعل من اروع
ما نظم في هذا الباب الملحون الذى نظم منه الشيء
الكثير امثال الشيخ محمد بن عبد الرحيم بن
يجيش التازي والشيخ المجاهد محمد بن يحيى
الهلولي الذى قرض الى جانب ذلك اشعارا
وزجليات تترقرق عاطفة وحماسا .

وكان نعيب الشعراء ينسكب في مرائي
محزنة كلما استولى العدو على مفسى من مغانى
الاندلس او مريع من مرابعه ولعل من اشد القصائد
تائيرا تلك التى نظمها شاعر مغربي او اندلسي
مجهول لم يعثر على اسمه حتى الآن لما فيها من
المعاني الجريئة وقوة الحماس ومرارة الواقع وقد
قيلت بعد سقوط طليطلة منها :

لتشكل كيف تبسّم الثفور
سرورا بعد ما بثت ثفور
لقد خضمت رقابكن هلبا
وزال عتوها ومضى الثفور

الى ان قال :

فلا تهنو وسلوا كل غضب
تهاب مضاربنا منه التحور

انترك دورنا ونفر عنها
وليس لنا وراه البحر دور ؟

رضوا بالرق يا لله ماذا
رآه وما اشار به مشير

(5) بلاخط هنا استعمال ابن هانيء لكافة مدق وهو صحيفة بيضاء او ثوب الحرير الابيض يستى
الصمغ ويصقل ثم يكتب عليه وقد قابل به مجمع مصر كلمة Stencil

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتشار عقد
الاندلس الذي ظل منتظما نحواً من ثمانية قرون حتى
صاح بعضهم حيرة وتحرقاً :

كيف السبيل الى احتلال معاهد

شب الاعاجم دونها هيجاهها ؟
وقد قال ابو البقاء صالح بن شريف الرندي :
لمثل هذا يدوب القلب من كمد
ان كان في القلب اسلام وايمان

وقال ابو المطرف بن عميرة الخزومي بمد
سقوط بلنسية :

يحن وما يجدي عليه حينه

الى اربع معروفها متنكر
ملاعب افراس الصباة والصابا
تروح اليها تارة وتبكر

الى ان قال :

وبالجبل الادنى هناك خطى لنا

الى اللهو لا تكبو ولا تمشر
كذلك الى ان صاح بالقوم صالح
وانذر بالبين المشتت منذر
وفرقتهم ايدي سبا واصابهم
على غرة منهم قضاء مقدر

وقال الكفيف وهو من فحول الزجاجين بزوهون
يمدح السلطان ابا الحسن المريني بقصيدة ملحون
منها :

عكر فاس المنيرا الفرا

وبسن سارت بومزابم
وقال ماخر يمدح السلطان :

اما الجهاد فقد احبى معالمه

وقام منه بمفروض ومسنون
واقام مفروض الجهاد بعزيمة
تركت بافئدة العداة فلولا

والله ما ادري وقد حضر الوفي

احسامه او عزمه مصقولاً
حطت البلاد ومن حوته ثغورها
وكفى بسمدك حاميا للدار

وقال :

فما رؤوس الكفر الا حصائد

بسيك سيف الله تجني وتقطف

وقال :

فاق الملوك بسيفه وبسيبه

فبمدله وبفضله يتمثل

وقال القائد محمد بن يحيى اجانا يخاطب
مولاي محمد بن الشريف على لسان الشيخ بن زيدان :

يا مالكا سعدت به اوطانه

فيما مضى وزها به المستقبل
نادى بك النصر العزيز لغرب

ولكم على فاس الجديد الكلكل

فاجابه محمد بن الشريف بقصيدة من اشاد
محمد بن سودة الفاسي :

ما من ملك ذاق لذة راحة

الا تجلى له الهوان فيفعل

الى ان قال :

وانفض غبار الدل وارفض ثوبه

يزداد وجهك بهجة ويهلل

وهي من الشعر الجريء الذي يذكركنا ببعض
حماسيات شوقي التي كتبها حيث كان منفياً في
باريس الهب بها شعور مواطنيه .

وهكذا زخر الادب المغربي بمبارات والفاظ
حماسية كالعضب ومضارب النحور والسي والحرز
والتحول والرق والوطن والنزوح والاحتلال والاصفاد
والعزم والثغور وقطف الرؤوس والنصر وغبار الدل
ومات اخرى تكاد تتفجر ايماناً وحيوية ولعل هذه
التبرات هي من افنى الآداب العربية في الحقل
القومي نظراً لتتابع الويلات على الاندلس وما كان لهذا
اللون من الحماسيات ان يتفتق بمثل هذه القوة في
الشعر العربي بالمشرق الا ايام الحروب الصليبية
وعند احتلال نابليون لمصر وكانت الصدمة ورد
الفعل الوطني قويين لان المغرب ظل منذ فجر الاسلام
محتفظاً بكيانه واستقلاله ولم يخضع حتى لدار
الخلافة العثمانية التي بسطت نفوذها على جل اقطار
الشرقين الادنى والاوسط وبقاع شاسعة على طول
الضفة الاوربية للبحر المتوسط ولم ينج من نفوذ آل
عثمان حتى المغرب الاوسط والادنى فكان من الطبيعي
ان تنمخض في المغرب على اثر محاولات الانتداء
الاجنبية في القرن التاسع حركة وطنية وطيدة افاد
منها تراثنا الفكري كنزاً ادبياً يكاد يكون فريداً في
بابه .

وقد عرف المغرب الوانا اخرى للشعر انظمت
باللق للملوك و احيانا بعمرائيات رقيقة واكبت الادب
الشرقي في عصره الكلاسيكي الذي حفل بالكليشيات
المتحجرة .

لمن ذلك قول ابي فارس الفشتالي ينوه بفتح
السودان :

جيش الصباح على الدجى متدلج
فبياض ذا لسواد ذلك يمحجق
وكانه رايات مسكره التي
طلعت على السودان بيضا تخفق

وهي لسان قصر البديع الذي شاده المنصور
بمراكش :

سموت فخر البدر دوني وانحطا
واصبح قرص الشمس في اذني قرطا
وصفت من الاكليل تاجا لفرقي
ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا
ولاحت باطواقي الثريا كأنها
نشير جمان قد تبتمته لقطا

وللقاضي ابي القاسم بن علي الشاطبي في مجلس
المنصور :

ما بال طيفك لا يزور لماما
وبمنعني الاحشا ضربت خياما
ابميش فيك هواذلي لسلوهم
واموت فيك صبابة وفراما

ولمحمد بن علي الهوزالي المعروف بالتابفة عند
ابلال المنصور من مرفه :

تردى اذى من سقمك البر والبحر
وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفا عليك مهيدا
واصبح مدمور الفؤاد الندى الفمر
الى ان قال :

لئن صدقت بيضى المعالي لقد همدت
تسيء الكماة البيضى واللدن السمر

وانشد محمد بن علي الفشتالي عند فتك
المجاهدين بالمدو في سبتة ايام المنصور (عام 996 هـ)

هذه سبتة طرف مروسا
نحو ناديك في شباب قشيب

وهي بشرى وانت كفو اللوآسي
كافات بطلها بفتح قريب

وقال ابن القاضي عند تحرير اصيلا :

يا ايها المنصور ابشر بالعلسى
قاله ابغ في الصدا الماسولا

انضامك سيفا لحنف عدائيه
وبكم هذا سيف الردي مفلولا

وفي عهد السلطان الغالب بالله السمدي زار
وزيره وابن اخيه محمد بن عبد القادر مدينة فاس
صحبة عالمين هما قاضي الجماعة عبد الواحد
الحميدي واحمد المنجور فلما تبدت لهم معالم
المدينة ارتجل الوزير :

اخلائي هذا المستقى وربومه
وهذي نواعير البلاد تنوح

وذاك المولى مطرح الشوق والاسى
وتلك منازل الديار تلوح

فاجاب الحميدي :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد
بين فوان طرفهن جموح
يمس كاملود من الروض يانع
شدهن من حول الديار يفوح

فمقب المنجور مرتجلا :

ويرتلن في العلات يختلن في الحلى
ولهن انواع الجمال وضوح

يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر
لاقبال حب طال منه نسروح

ومن شعر السلطان زيدان بن المنصور يتفزل
في السوالف والحدود :

فتنتنا سوالف وخذود
وهيون مدمجات رقود

ووجوه تبارك الله فيها
وشعور على المناكب سود

اهلكتنا الملاح وهي ظباء
وخضعنا لها ونحن اسود

ومن روائع النشر ما كتب به المنصور الذهبي الى الشيخين البدر القراني والزين البكري : « هذا وانه اتصل بعلي مغانا كتابكما الذي صدحت على انان البلافة سواجمه ومدبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه ولطفت في كل معنى من المعاني افانيته ومنازعه وتالفت على الاجادة في كل مقصد من المقاصد مواصلة العذبة ومقاطعه وابنمت بازهار العناية الربانية اباطحه الفيج واجارعه .. »

كانت بعض الالتاب والتصوت تتسرب من المشرق فتشير نقدا لاذعا لدى علماء المغرب مما حدا ابن الحاج الفاسي الى القول : « يتعين على العالم ان يتحفظ من هذه البدعة التي عمت بها البلوى وقل ان يسلم منها كبير او صغير وحد ما اصطلعوا عليه من تسميتهم بهذه الاسماء القريبة المهمل بالحدوث التي لم تكن لاحد ممن مضى بل هي مخالفة للشرع الشريف وهي فلان الدين والعالم اولى من يتحفظ على نفسه من هذه الاشياء وبدب من السنة في حق نفسه وفي حق غيره .. »

ومن نتائج النقد اللغوي ما كتبه الاجدائي حول التوشيح والوشاحين معلقا على بيت ابن الرقاق المغربي :

على عاتقي من ساعديها حمائل

وفي خصرها من ساعدي وشاح

حيث استعمل هذا الوشاح في معنى النطاق وهو ما تديره المرأة على خصرها والوشاح ما تتقلده على عاتقها فيكون منها في موضع حمائل السيف من الرجل وقد خطيء ابو تمام في قوله :

من الهيف لو ان الخلائل صورت

لها وشحا جالت عليه الخلائل

لانه استعمل الوشاح في الحجاب وانما وصفوا الوشاح بالقلق والحركة لان ذلك يدل على رقة الخصر وضمود البطن ..

وقد ظل اقطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الاجازات كما كان المشاركة يتوقون الى مبادلة علمائنا وجوه النظر وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب في شخص افذاذه امثال ابن سليمان الروداني والمقري وابن الطيب الشرفي ويحيى الشاوي واليوسفي واحمد بن ناصر واحمد القادري ومحمد (لتحا) الفاسي ومحمد بن

الطيب العلمي المتوفى بالقاهرة واحمد بن الخياط الذي مكث طويلا في القاهرة ايضا واحمد الهلالي الذي ترك لنا وصفا شيقا لرحلته العلمية هذه . لان اساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما ان عناصرها الحيوية يتم بعضها بعضا في هيكل موحد رصين . ولعل ما لاحظته المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشرق والغرب في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه اذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق في ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوفل في البحث اللغوي مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الابواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف الى ذلك من تتبع الآثار وبينما غلب على تأليف المشاركة الإيجاز (عدا البعض كالفزالي والفخر الرازي) مع انحصار في الموضوع سواء في التصنيف ام التدريس اذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين يوفلون في الاستطراد . واذا كانت صناعة التأليف قد انتهمت في علماء المغرب على صناعة اهل المشرق في شخص ابن ابناء المراكشي فقد حلوا ذلك (ببراعة نسبة من البداوة) فير ان الامر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون في المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظر لان التحقيق العلمي ظل طابع الكثير من علماء مهند الشرفاء هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد في المنهج وايغال في استظهار النصوص حيث ادى الحال في بعض نواحي المغرب كسوس الى تطرف في الاستظهار تجاوز التون الى معجم اللفظة ولكن هذا الاسلوب الذي كان يحجر الفكر احيانا عند من لا يستطيع ان ينسق بين واهيته وملكته التصورية قد ضخم على المكس عند البعض السليقة العربية ولا ادل على ذلك من وفرة اعداد الادباء والشعراء في سوس حيث لا يزال التحقيق اللغوي خاصة بارزة ولا يمرب هنا ان ابن القزاز البربري هو الذي صحت عليه اللفظة بالاندلس بعد ابي علي البغدادي وان اهل شنقيط اقرب الى الفصحى من باقي عناصر الشعوب العربية بفضل تلك الروح الاستظهارية البسيطة .

واذا اردنا ان ندرك نوع المعارف التي كانت سائدة في ذلك العصر والتي احتكرت نشاط رجال الفكر فما علينا الا ان نستعرض زمرة ممن شغلهم المهديان الغربيان امثال اليوسفي والافلاحي والتمنارتي ومبارة والمرغيشي واليوسفي والعباسي

وآل الفاسي والفساني والحلي وابن زكور وأحمد
ابن ناصر وغيرهم نستتبع لنا خطوط ذلك الأطار
الذي انحصر فيه النشاط الفكري .

فمن عالم يكدر في خمول موزها يومه ييسن
التدريس والعبادة الى مصنفه لا يعدو شرح النصوص
الفقهية او جمع تراجم الصوفية او وضع لوائح مطولة
من شيوخه واجازاته الى فقيه انصرف للقضاء او
الفتيا فاحكره حديث النوازل والاقضية والخصام
والشجار .

ولكنك تجد ازاء هذا النزوع الفقهي والوجهة
الصوفية اتجاهات من نوع جديد تضي على المجتمع
الفكري الوانا طريفة فانك تشر في هذه الفترة على
دواوين شعرية وتحريرات تاريخية الى جانب
كتابات في الحساب والفلك والطب فهذا عبد الرحمن
التنارتي يتولى الفتيا والقضاء ويقرض الشعر العالي
ويؤرخ لسوس العالة في فهرسته القيمة وهذا
المرغشي يدلي دلوه في كثير من شعب المعرفة بعد ان
اقام في زاوية الدلاء محفل الآداب والعلوم فيكتب
في الرياضيات والهيئة ويجمع معلومات شيقة من
مجتمع عصره مازجا ذلك بفوائد مختلفة تتراوح بين
التنزيلات الروحانية والوصفات الطبية والشوارد
الادبية وقد استقى الافرائي مادة تاريخ المجتمع
السعدي من امثال هذه المصنفات ، وهناك نوع
آخر من التصانيف يتجلى في (الدر الثمين) لمبارة
حيث نجد الى جانب الديول الفقهية والتعاليق
الصوفية طرائف من الحركة الفكرية المعاصرة وبرحنة
المياشي يظهر اسلوب جديد في البحث يحاول ان
يتجاوز النطاق المغربي المحدود الى ذلك الفضاء
الواسع الذي يمتد الى الشرق الادنى حيث المناهج
الدراسية تختلف نوها ما عنها في المغرب وحيث
طرائق التصنيف ومواضيع التأليف تتسم بميزات
من طراز جديد فنرى المياشي يحاول ان يدرس خصائص
الشرق ليقارنها بالحالة المغربية مخللا ذلك بنظرات
تاريخية وتلويحات صوفية واستطرادات ادبية فهو
يحدثنا من شراب البن في الشرق مشجرا الى انعدامه
اذ ذلك بالمغرب كما يصف لنا يوم الحمل بمصر ثم لا
يلبث ان ينتقل الى الطرقية ومناكر المواسم معرجا
على جزئيات كتطويل اللحية وحكمها وعدد العوالم ثم
يدرج فوائد طريفة كاستيناس المصريات المترفات
بشراء ربال من الازهار كل يوم ولا شك ان شيوخ هذا
النوع من التأليف في الوسط المغربي يحدث السره
السريع .

وقد افرق العلماء في التصنيف حتى بلغت
تأليف بعضهم المائة والسبعين وهذه الوفرة من ابرز
مميزات العهد العلوي يضاف اليها التنوع حيث تجد
الرجل الواحد يؤلف في الطب والهيئة والفقه
والتاريخ والتراجم والآداب ولكن اذا كانت بعض
المصنفات صوره صادقة لذلك العصر كمحاضرات اليوسي فان
الكثير يمتاز بموضوعية متطرفة لا تتسرك مجالا
لانبثاق ذائبة المؤلف مما يفقدها الروح والتممة
فالمحاضرات تصور لك الحركة بكيفية تثير في النفس
حب التطلع وروح الانسباق مع المؤلف حتى ليخيل
للقاريء انه يمشي في ذلك العصر وهل هناك لوحة
تاريخية تبلغ من تلك الصور المتتالية التي يرسمها
اليوسي فيشخص فيها الادباء في مساجلاتهم
والصوفية في حضراتهم والمبشرين في دعاويهم
والعوام في خرافاتهم وتشب الرحلة اليوسية رحلة
احمد ابن ناصر من حيث الاغاضة في الحديث عن
الشرق .

ثم ينبثق القرن الثاني عشر فيتسع نطاق
النشاط الفكري ويتضخم التنوع فيظهر امثال الرياني
والوزير الفساني والشريف العلمي .

فالرياني مؤرخ دقيق الملاحظة يخطو بأسلوب
البحث والتحقيق خطوات ويوسع موضوعه ليكشف
عن الحياة في جزء من القارة الاوربية وينتجع اسلوبه
التاريخي بمنزوع جديد لانه يعاول مزج وصف
الاحداث بنظرات عن نظام الحكم والحالة الفكرية .
اما رحلة الفساني الى اسبانيا فانها وثيقة عرفت
ادباء المغرب اذذاك بأساليب الحياة في بلدان مسيحية
ووصفت المجتمعات الاوربية وحيات البلاطات والطبقات
الارستقراطية الاسبانية ، وتجد الشريف العلوي
يفرد ادباء وشعراء بتأليف خاص فيشجع بالتصنيف
اتجاها فنيا يهدف الى النقد والتحليل والتنظير من
خلال محاورات اجراها مع النبي عشر من معاصريه
كالحلي وابن زكور ومسمود المريني والقرظي
والبوعصامي غير ان هذا (الانيس المطرب) جاء رغم
ذلك موسوما بالطابع العام الذي كان يصطبغ به
التصنيف في القرن الثاني عشر وهو الانتشار وعدم
التزام الموضوع وقد شبهه بعضهم من هذه الناحية
بقلائد العقبان للفتح بن خاقان او المنتقى المقصور لابن
القاضي . فنحن نجد الى جانب هذا البيت الذي هو
من نظم المؤلف نفسه يخاطب به المولى اسماعيل :

امولاي امننت البلاد واهلها
فله رب الناس ثم لك الشكر

قصيدة للحلي مظلما :

يا رب اني ضعيف هالتي الوجع

ما حيلتي يوم هول المرض ما العمل

واخرى لابن زاكور (وحيد البلاغة وفريد

الصياغة) صدرها بقوله :

اتق الله ما استطعت فان

الله ربي مع الدين اتقوه

هذا مع ان للحلي مقامات عارض بها الحريري

ولابن زاكور (عنوان النفاسة في شرح الحماسة)

و (مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد)

والصنيع البديع وشرح المقصور والمدود وشرح

لامية العرب والمغرب المبين وغير ذلك .

وهذه النزعة الصوفية نجدها عند معظم شعراء

هذا العصر فالشاعر مسعود المريني (واعظ المدينة

المرتدي بالوقار والسكينة) الذي له تأليف في

المتصوف وقصائد عارض بها ابن الوفا وطاول ابن

الفارض يقول في مطلع قصيدته :

يا رب انك موجدي ومكوني

ومدبري ومصوري ومشكلي

وفي اخرى :

سهام الموت راشقة النبال

ونحن مع البطالة لا نبالي

ولكنه يقول ايضا :

طيف الخيال تعرضا

اخذ المقام واعرضنا

وائار وجدا كان نسي

طي الاضالع اجهضا

ويقول في رسالة التزم فيها السين محتديا

بابن الخطيب :

سلام كنسمة مسك سرت

لانفاكم بنسيم سحر

لساحتكم ساقه مستهام

سباه سنا حنكم وسحر

ومن شعراء العصر ايضا محمد بن العربي

الشرقي (شاعر الاوان الذي لم يشتمل على مثله

ديوان) القائل في حقيقة الشاعر : (ان اسم الشاعر

لا يطلق الا على من وقف في حرم المعاني بكل المشاعر

اما من سلك طريقة واحدة فأراؤه فاسدة وبنائه على

غير قاعدة) ولعل هذا التعريف صورة لذلك العصر

الذي كان شعراؤه يستوحون من ارواحهم المضطلمة

باوار التقوى وفي ذلك الحوار الذي دار بين هؤلاء

الشعراء وبين الشريف العلمي الوان شتى وضروب

مختلفة للاداب والفنون التي كانت رائجة في ذلك

العصر .

وبعدما يذكر العلمي شعراء معاصرين آخرين

امثال احمد عمور نراه يمرج على كتاب العصر كالمهدي

الغزال القائل في وصف راقصة :

قامت بكأس الروم راقصة

بين الغواني رقصها يطرب

كانها والكاس في يدها

بدر تبدي حوله كوكب

وفي وصف بنتان :

انظر الى الروض وقد نثرت

عليه اوراق من الياسمين

يحكي بساطا ناعما صيغ من

زبرجد يعطوه در لمبين

ولكنه يقول ايضا متأثرا بنزعة العصر :

الموت لا شك آت

وكل آت قريب

فتب وتب قبل ان

يعتريك منه وثوب

ومنهم عمر الحراق القائل في ديوانه يفاخر

بمسقط رأسه شفشاون :

ما شعب بوان ما مرج دمشق وما

نيل بمصر وما العاصي لدا حلب

في جنب شفشاون الغراء ان فخرت

بتينها وبزيتون وبالمنب

ومنهم احمد دادوس (صاحب التماريض في

الضروب والاعاريض) الذي رثى وغزل وجد ما شاء

وهزل) والاديب البوعصامي (بليغ مصره وامام

الادباء في مغربه ومصره رحل الى المشرق، وطلع عليه

كابدر المشرق) القائل :

(يتصرف في فنون الكلام كثير الاقرب لا يعلم له مراد ولا يفهم من اياته الا افراد) .

وهناك شعراء وكتاب آخرون لم يذكرهم الشريف العلمي في انيسه امثال عبد الواحد البوعناني مفتي فاس الذي هنا المولى اسماعيل على تحرير العرائش بقوله :

الا ابشر بهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزكم الامور
وقد وصف اشرياب ائناق المدن المختلفة الى
التحرر على يد السلطان فقال :

وهو ان نادي كل يسوم
متى ياتي الامام متى يزور
وقال قبله :

اذا ما جاء سبتة في مشي
تناديه اذا كان البكود
ومنهم عبد السلام بن حمدون جوس القائل :

رفعت منازل سبتة اقوالها
تشكو اليكم بالذي قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا
وتنبهوا كي تسموا تسالها
فلقد قضيت للعرائش حاجة
مع طنجة فاقضوا الذي آمالها
وارفع لهذا الغرب راسا انه
في الضعف ما دام المدا انزالها
وقال عبد السلام القادوي :

علا عرش دين الله كل العرائش
وهد بنصر الله قصر العرائش
تلك الوان خاصة من الشمر الوطني الذي
يحاول فيه الشاعر التمييز عن آلام الشعب وآماله .
وعندما قام المشايخ ابو حفص لوقاش يدعي
الملك قائلا :

انا عمر الموصوف بالباس والندي
انا عمر المذكور في ورد الجفر
اجابه ابن بجة الريفي بقصيدة منها :
في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر
منها ادماء الحمار انه بشر

محي بدمع كالعقيق محاجري
شوقا لطيبة والعقيق وحاجري

ولهذا الشاعر باع طويل في ترتيب النغمات
الثمان التي عليها مدار الفناء والالغان.
ومنهم ايضا الشاعر عبد القادر بن شقرون
القائل :

اسقياني كؤوس بنت الدوالي
ان مراني السقام لهي الدوالي
الى ان قال :

كم ليال قطعنها في نعيم
حفظ الله عهدك تلك الليالي
بين راح وشمعة ومفن
وظباء قنصتها باحتيال
ولكنه ينفل (لثرة مصر) فيقول :

رب يسر لمبدك الفتح واشرح
صدر من صدره من العلم خال
ومنهم الكاتب محمد بن سليمان (شاعر
مطبوع .. واديب همام) القائل :

عديري من هوى فحسن وطيب
اراني البدر من فوق القضيبي
مليح فاتر الاحاظ طفل
صبوت لحسنه بمد المشيب

ومنهم الحاج علي مندوصة الذي كلامه (يفار
منه امرؤ النيس ويحن اليه جميل بثينة وقيس)
القائل :

الى كم فدتك النفس ترمي فؤادنا
بهم نضي اللحظ ازياقه هذب
الى ان قال :

فدونكم ربات قرط خريدة
مفوفة هيفاء هام بها الحب
مبرقمة لياض فضة بضة
سوى انها عذراء ناهدة مرب

ومنهم محمد بن يعقوب (صاحب الابيات السهلة
العبارة اللطيفة الاشارة) ومن تلك النماذج تدرك
ان شعراء العصر العلوي الاول مراتب فهم بين فحل

وهذا لعمرى ابداع فى فن الاقداغ .

والشيخ رايتته
بفعل ما لا ينفسى

قلت له انت بسرى
قال بلى انا بسرى

ويمكن القول بان تلك الهبة الادبية الرائعة
التي همت بلاد سوس فى العهد العلوي حتى فتحت
القرايح من بعض ما انتجه الفكر المغربى - انما يرجع
فضلها للحركة الناصرية التي نشرت العلوم والفنون
الى تخوم الصحراء .

وهذه المجالة تضيق من استعراض النماذج
المختلفة للحياة العقلية فى العصر العلوي ولعل فى
كتاب (نشر المثاني لاهل القرن الحادى عشر والثاني)
لمحمد القادري مادة وافية لمن اراد ان يقف على الوان
الحركة الفكرية بالمغرب خلال قرنين .

وقد ضرب الملوك الادياب بسهم وانر فى هذه
الحركة لحفظ السلطان محمد بن عبد الله الاغانى
للاصفهاني مع صحاح الحديث وامهات الكتب تركيزا
للملكة العلمية وكان فى ذلك بعث جديد للغة العربية
واصولها وآدابها وفى هذا العصر ظهر محمد بن
الطيب الفاسى استاذ الشيخ مرتضى الزبيدي
المصري الذى الف اكبر موسوعة لغوية فى العصر
الحديث هي تاج المروس فى شرح القاموس
للفيروز اباذي (6) والذى كان يصحح من املاءاته
معاجم اللغة كما فعل ابن القزاز البربري فى المصور
الاولى .

اما القرن الثالث عشر فانه لا يكاد يختلف فى
مجموعه عن سابقه فقد امتدت الى اوائله حياة
رجلين هما محمد التاودي ومحمد المنالى الزبيدي
الذان مات كلاهما عام 1209 وكانا نموذجا جديدا
لعلماء يحرمون على انتاج الشرق للتبحر فى علوم لم
تكن منتشرة فى المغرب الا عند الخواص وقد كان
العلمان رسولين من المغرب الى الشرق فى هذه الفترة
للاقتباس من الفكر العربي هناك وخاصة فى القاهرة
حيث تبلورت معطيات الحضارة الاسلامية فى
الازهر الشريف ومن نبغ فى هذا القرن من رجال
الفكر ابن عجيبة الذى تحتوى فهرسته على معلومات

وفى هذا العصر كانت زاوية شرقاوة فى ناحية
نادلا محفلا للاداب والفنون وقد خلفت زاوية الدلاء
فشملت بعطفها كثيرا من الادياب الذين وجدوا فى
ربما المقام الرحب كالافرانى الذى بدأ حياته
التصنيفية بشرح بديع لتوشيح ابن سهل الاندلسي
وهو نموذج للنثر (الفنى) فى ذلك العصر اما الزاوية
الناصرية فقد احتفظت باشعاعها فى الجنوب وفى
(الدرر المرصعة) لمحمد المكي الدرهمى صور ناصعة
لائار هذه الزاوية فى العلم والاداب والكتاب ينطوي
على معلومات ادبية قيمة وقصائد رائعة منها مقطوعات
كلها تفجع على اهل الدلاء كقول العربي الفاسى:

ادار بذات السدر فى الجانب الشرقي
سقال الحيا ما دام صوب الحيا يستقى

اما درعة فقد قيل فيها بين ما قيل :

الم بدرعة واختر للنزول بها
زاوية الفضل ماوى المجد والكرم

وهناك مقطوعات منها للهاشمى الشكلى
الرباطي :

يا حاديا اسرع بذات الزمام
وارع رعاله الله حق اللمام

فاننى امسيت ذا قلق
من شدة الشوق وفرط الغرام

وقال :

ورشا من آل يافث
لحظه بالسحر نافث

بخطا السين الى ناء
المثاني والمثالث

قلت جدلى بوصال
قال دع منك الوثاوث

- وتذكرى هذه الايات بالبيتين الذين ساقهما
الجاحظ فى البيان والتبيين :

(6) قال الزبيدي فى شيخه هذا: ورايت شرح شيخنا الامام اللغوي ابي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد
الفاسى المتولد بفاس سنة 1110 والمتوفى بالمدينة المنورة سنة 1170 وهو عمدتى لى
هذا الفن والمقلد جيدي بحلى تقريره المستحسن (التاج - المطبعة الخيرية - مصر 1306 هـ ص 3)

حول الحالة الفكرية في تطوان وسليمان الحوات
الذي جمع في البدور الضاوية اجازات الدلائيين
ومراسلاتهم ومقتطفات من اشعارهم والشيخ حمدون
ابن الحاج الذي ترك لنا ديوانا حافلا بمدائح المولى
سليمان الذي حركت مآثره المشاعر حتى قال محمد
ابن ادريس الفاسي :

بسليمان قد سلمنا وسرنا
فاللئى منزل له والملاء
كفه كفت الفساد وكفت
كل عاد فما لكم اكفاء

وبلغ صدى الفاخر السليمانية تونس الشقيقة
فتحركت شاعرية فعلها الهمام ابراهيم الرياحي
الذي نظم قصيدته الخريدة التي مطلعها :

ان عز من خير الانام مزار
فلنا بزورة نجله استبشار

ومنها :

هذا الذي رد الخلافة لغة
وسما به للمسلمين منار

ومن شعر ابن ادريس يستنفر الشعب لحرب اسلى
مشيرا الى زحف العليبية من الشرق ضد الاسلام :

يا اهل مغربنا حق النفيير لكم
الى الجهاد فما في الحق من فلفظ

فالشرك من جنبات الشرق جاورك
من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

فواج المكر تبدو من خوائمه
فمنده المكر والمكروه في نمط

من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سفظ

وقد تمزق النشر بالمطبعة الحجرية التي اسست
بفاس في منتصف القرن الماضي فصدرت عشرات
المصنفات القيمة التي زخرت بها مكاتب المخطوطات.
وقد اتصل جبل الادب على الطريقة التقليدية في
النصف الاول لهذا القرن كما تواصلت حلقات
التصنيف في نطاق محدود على فراد القرون السالفة
مع اقبال في الاقتصار على الجمع والتنسيق بكيفية
تجرد عالم التأليف من كل روح .

ومن الصعب التمييز استنادا الى منهجية التعبير
وحده بين مصنفات يتأرجح تاريخ انبثاقها بين
قرون ذلك ان اسلوب الادباء واللغويين ظل في
كلاسيكته المتحجرة في منأى عن الاهتزاز للكثير من
النبرات الجديدة المتفاعلة مع لوازم البعث الحضاري
المتجدد واذا كانت اللغة كائنا حيا يتدرج في مراحل
النمو بين الطفولة والهرم ثم الانبعاث في طفرات
جديدة فان اللغة العربية بالمغرب الاقصى خاصة قد
احتفظت بطابع اصيل خلال خضم الاحداث
السياسية والحضارية واذا كان هنالك عامل منطقي
لتعليل هذا التحجر فهو ان الكثير من ادبائنا ولغويينا
ظلوا عالقين بابرار عاجية في حين ان لهجة التخاطب
كانت قد درجت في المجاري العيرة الفياضة
وبذلك اتسعت الهوة بين الفصحى والعامية بتسرب
الدخيل الاجنبي وقد تجلت روح التجديد عند ادباء
او في مراسيم ومراسلات رسمية فظهرت بدلا من
مصطلحات معربة في قالب رصين الفاظ عامية على
حساب اللغة الاصيلة الفاظ عامية تكثر وتقل تبعا
للحاجة الملحة في ضبط الوقائع وتدقيق المعاجريات
وان كانت خطابات ووثائق سياسية اخرى احتفظت
باسلوبها الكلاسيكي الرنان على حساب الدقة
والوضوح .

اما في صحراء شنقيط فقد نشر الشيخ احمد
ابن الامين الشنقيطي نزيل القاهرة مصنفه القيم
« الوسيط في تراجم ادباء شنقيط » منذ عام
1329 هـ - 1911 م في الوقت الذي انبثقت الثورة
من اقصى الجنوب برعاية ما والعينين لتحرير المغرب
من الزحف الصليبي فاتحفنا بصور رائعة من فنون
من الشعر الرقيق ابدعته قرائح الصحراويين المغاربة
في قلب الفيافي القاحلة مجددين بذلك عهد الجاهلية
الاولى في نضاعة الاسلوب وجزالة اللفظ ورقة المعنى
وفخامة المبنى وكانت ضرور القول لا تتعدى الاطار
التقليدي من مفاخرة ومهاجاة ومدبج وغزل
وتشبيب وقد برز عشرات من الشعراء والناشريين
خلدوا اللغة في اصالتها وروعتها الاولى .

فمن شعر ابداء محمد بن محمود يصف مرافق
الصحراء :

حملنا الخيام وانفادها
وسرنا جيما تقسلا بطا
فجر العجاف رويدا لثلا
تخب فتبهر او تثلططا

ومن الأرجال العامية التي أصبحت تسيّر
مسرى الأمثال عند الجماهير قصائد « الملاحون »
للغني الشاعر الهادي بن محمد (المتوفى عام
1319 هـ) .

مدمن مـ لـ لـ

محدود المـ المـ

افـ كل اسـ

اسـ من حـشـ (7)

ومنها يدم قبيلة بأسلوب عربي لاذع :

ما فـ المـ فـ

وبـ لا خـ مـ كـ (8)

أما الصحافة فقد ظهرت في المغرب منذ أزيد
من مائة وأربعين سنة ولكن بلغات أجنبية خاصة في
سنة وطنجة إلى عام 1868 حيث برزت جريدة
اسبوية بثلاث لغات (العربية والفرنسية والإسبانية)
تحل أحداث العالم وماجريات المغرب ، وفي عام
1889 صدرت أول جريدة عربية اسمها « المغرب »
وتنافست المفوضيات الأجنبية فصارت كل واحدة
منها تصدر صحيفة باللغتين الأصيلة والعربية لمهاجمة
الحكومة المغربية تمهيدا للحماية .

ولم تكن تصل اليها آنذاك سوى جريدة
« الأهرام » المصرية التي كان المغاربة يتهافتون على
قراءة الأعداد القليلة الواردة منها ثم توالى الصحف
العربية في أوائل القرن العشرين فظهرت « الفجر »
و « لسان المغرب » و « السعادة » . وانصرف الفكر
المغربي طوال ثلاثين سنة لتعزيز المقاومة المسلحة فلم
تظهر أول دورية وطنية إلا عام 1932 وهي مجلة
« مغرب » التي ما لبثت أن تمزقت بصحيف أخرى مثل
مجلتى (السلام) و(المغرب الجديد) و(جريد الحياة) تعضدها في
المساجد محاضرات تكونت في حلقاتها نخبة وأمية

شكلت الأطر الوطنية الأولى للخلايا التي انبثت في
بلاد تركز لغة القرآن وتقرأ بثلهف ما يتسرب خفية
إلى المغرب ضمن الحركة الشرقية للتأليف والنشر
من الصحف والمجلات (9) وبدأت روح جديدة تنفتح
في أسلوب حماسي رائع يستمد أواره من النهضة
القومية بالجنح الشرقي للعروبة وخاصة بمصر
والشام فظهر شعراء لمع نجمهم وبدأ الشعر يعنى
بالقضايا الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي
ويتخلص تدريجيا من وطأة المفاهيم الكلاسيكية حول
الغزل والتشبيب والمدح والهجاء متفتحا لمعطيات
طريفة أكثر صلة بمتحدثات العصر ومتطلبات
التطور ومع ذلك فإن هذه الفترة لم تكن خالية من
تخضم كمرحلة انتقال بين عهد برز فيه جبل ما
قبل الحماية وجبل التوثب الجديد الذي أشاد به
الأستاذ غلال الفاسي في مخطوط حياة « وادي
الجواهر » فمنهم محمد فريط صاحب « فواصل
الجمان » حيث ترجم لأزيد من ثلاثين من « وزراء
وكتاب الزمان » كان ينظر إلى قيمتهم الأدبية بمقياس
جديد فقد تحدث عن أديب « استكتب في وزارة
الخارجية إلى أن شالت نعمته ووسدت في التراب
هامته في عام نيف ومئسة وثلاثمائة والف » ثم حاول
تعريف قطاع وزاري جديد في أسلوب قانوني ينم عن
اهتمامات العصر في الحقلين الدبلوماسي والسياسي
حيث قال : « وزارة الخارجية عبارة عن الاستقلال
بمباشرة دعاوي أهل الحماية وتنفيذ ما تملق بها من
عزل أو ولاية والوساطة بين السلطان وبين سفراء
الدول وكبرائها وكتابة الرسائل للوكها ووزرائها » .
ومن نظمه الرائع نشيد مدرسي نحا فيه منحى
طريفا بين التوشيح والتخميس في « مان جديدة » .

قال :

يا بني الدهر اجيبوا

داهي التصح النبـ

(7) مد أي ماذا وعلال من العـ يعني الذي يحلب نوق الناس بعد أن تذهب للري من عند أهلها وهو
عندهم وصف في غاية الدم ومعدود أفـ المـ أي معدود في المـ أي عالة على الناس والأنوال
بيوت من الشعر وأسر من حـشـ أي أكثر من الحـشـ سري .

(8) فم أي أصله ثم وهي لغة والتـمـفـ كالتـمـد أي التشبه بمعد بن عدنان) بأخلاق بني
مـفـ ومـفـ قبيلة بناحية فاس والخيم هو حسن السجية وهو الخلق كما عند ابن
سيده في الحكم (فـارسي مـرـب) ومعنى البيت أن هؤلاء القوم مجردون من كل الأخلاق
المـفـرية ومن السـجـاـ الحـسـنة .

(9) وأهمها مجلة « المنار » للشيخ رشيد رضى التي كانت قليلة حتى اضطر بعض رجال الفكر من المغرب
إلى التوجه للجزائر للاطلاع عليها .

هذي البواخر لي همق البحار وفي
 اعلاه تفعل فعل الفارس البطل
 هذا التمدن هذا الفضل فامن به
 ليس التمدن بالالمان وانفزل
 ومن بين من برز من الشعراء في هذه الفترة :
 محمد السليمانى الذى تمخضت رحلته الى
 الشرق العربى الناهض من ثورة في احساسه
 ومنهجيته ومن نفاثاته التى يواكب فيها شاعر
 الكنانة حافظ ابراهيم قوله :

ولست الى النسيب اهش كلا
 لسان وراه لمح السراب
 ولا وصف الجالس يردھيني
 ولا جس العشاني والريباب
 اليك امني فقدت حجابها
 وهذا عزها وشك الذهب
 وهذا صبحها يحكي مساء
 فزالتها توارت بالحجاب

وقد وصف في دقة وروعة جانباً من الآسى
 الاجتماعية والاقتصادية التى توالى على المغرب
 المحتل مشيراً الى تكة العريضة وتقلص ظلها
 وسياسة التفتير والتجهيل التى نهجها الاستعمار :

رضينا الي حتى لا نصيح
 اذا ما قال سررك في الجواب
 ولا احد من اهل العلم منا
 يقيم لسانه عند الخطاب
 مصانعا الم بها فساد
 فاصبحت الصنائع في اضطراب
 وساد على تجارتنا كساد
 فراس المال منخرم الحساب
 وزاحم في فلاحنا اتاس
 جنوا من ريمها عجب العجاب
 ونحن ازاءهم فقراء نلقى
 بانفسنا باحضان المرابي (10)

واستجدوا ذكر قطر
 كان ذا صيت شهير
 جددوا للضرب مجدا
 واركبوا كذا وجدا
 واقدحوا للعلم زندا
 والبسوا للحرز بردا
 وابتضوا هديا ورشدا
 تسموا شكرا وحدا
 وتروا رميا جميلا
 من ذوي القدر الخطير

ومنهم احمد البلغيشي الذى يعتبر انموذجا
 للعالم المبرز وللغقيه الضليع والمفني البارع الذى
 يحقق قضايا القانون في مصطلح دقيق يستجلي بواطن
 المعضل الى جانب شاعرية فياضة جمعت بين الصفاء
 والجزالة . ومن نظمه :

بدت لي ترونو بالعيون الفوائر
 ولكن لها في القلب وقع البوائر
 بدت لي وفي قلبي المني بعبها
 لوامج اشواق كحمر الهواجر

اما عبد الله الفاسي نائب السلطان مولاي
 حفيظ بطنجة وسيره بباريس فهو خطيب واعظ
 وناقد قانوني ، ومن شعره :

ليس التمدن ما يلهيك من عمل
 برقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا
 ليس التمدن في عيب الدين مضوا
 بل التمدن في اجلال من فبرا

وقال في تصيدة اخرى يصف بعض ما ظهر
 آنذاك من طائرات وسيارات وقطارات وبواخر
 وغواصات :

هذي المناطد فوق الجو تنشدا
 هذي الآئر والآئر في الدول
 هذي المراكب تطوي الارض تحفنا
 قرب المرار ويمن السير والنقل
 هذا القطار يخد الارض منتظيا
 متن البسيطة في سهل وفي جبل

(10) راجع «الادب العربي في المغرب الاقصى» لصديقنا الاستاذ محمد بن العباس القباج

وقد كانت الدعوة الى التجديد في نطاق الروح
الاسلامية هي شعار مصر يتردد في كل قصيد
فمن ذلك ما قاله السليماني :

فكل زمان له حلة

فالق دلاءك بين الكرام

ومهد الله الفاسي :

والبس لكل زمان حل حله

فالشهم من يعرف الإدوار والمصرا

وقد اتجه القريض خاصة لوصف مظاهر
حضارية مستحدثة كمنظر الشاهر محمد يوعشرين
بين الكهرباء والماء حيث يقول :

قد سبج الماء في انبويه سحرا

فقطب الضوء كالزور من غضب

الكهرباء اراها قوة جبلت

على الحرائق والاسراف والمطب

ضوء الزبوت وضوء الشمع قد محيا

من آية الليل اذ اشرفت من حجب

الى ان شبه هذه المناظرة الطويلة برواية شخمت
ادوارها في اسلوب جذاب واستعمل فيها تعابير
طريفة حيث قال :

تلك الرواية من تعبير نادرة

تشخيص ادوارها من ابداع الخطب

وقد ردد المغرب في تليف وحنان اصداه
الشرق المتناهي الذي حالت دونه حجب وهوائق
مترسما خطاه في كل شاد وفاذ فقد عبر محمد
ابن اليميني الناصري عن حرقة الابداء في فجيئتهم
بالمفلوطي حيث قال مشيرا الى فن الفقيده والسوان
بديمه :

ما للمعارف ترسل «النظرات»

نحو الثرى وتسلسل «المبرات»

فالمغرب الاقصى يمزي مصر في

ذاك الابسي مذلل العقبات

يا مصطنى وليت هنا لابسا

حلل الشفاء موثق الخطوات

قد كنت لينا مرشدا ومهدبا
ومشدا بالخير خير نبات

* * *

وظفر المغرب طفرته الرائعة برعاية الاستاذ علال
الفاسي ورفاقه الاحرار عام 1933 عند مطالبة الشعب
بتخليد الذكرى السنوية للعرش المغربي كمنسوان
للوطنية الصادقة التي اظهرها جلاله المرحوم محمد
الخامس وقدمت الكتلة الوطنية في العالم التالي
برنامجا مركزا للاصلاح برهن بالاضافة الى روحه
التحررية من الخطوة الحريثة التي قطعتها الفئة
العربية في فترة وجيزة اصبحت خلالها قالبا حيا
لمفاهيم جديدة ومصطلحات طريفة ردها الشعب في
شعاراته مثل الغاء الحكم المباشر وفصل السلطة
وتشكيل مجالس وطنية منتخبة وقرار الحريات
العامة وحق الاضراب وتوحيد التعليم وضمان الملك
العائلي وتوسيع القرض الفلاحي ومحاربة سياسة
الادماج وتكوين الاحزاب وفتح المجال للبعثات العلمية
الى الشرق العربي وحماية الصناعة الوطنية وضمان
السكن الصالح للجميع وتمززت هذه المطالب بحركة
« تضامن » بين تونس والجزائر والمغرب وانعقدت
«مائدة مستديرة» بين الكتلة الوطنية وادارة الحماية
وصدرت صحف عربية جديدة ك « الاطلس » . فقطع
المغرب بفضل هذه الانتفاضات خلال نصف قرن ما لم
يقطعه في آحاد عريضة حيث تقاربت الاحاسيس
وتجاوبت العواطف بين الشعوب العربية واتحدت
مجالي التعبير بعربية حية تساوقت مصطلحاتها
وتجانست مفرداتها في الصحالة والاذاعة في عواصم
الشرق والمغرب العربيين وانبثقت الى جانب هذه
الثورة الفكرية نهضة علمية انمكست صورها على
مجلات ودوريات مثل « رسالة المغرب » التي اصبح
عنوانها رمزا لمدرسة القاهرة الناهضة في شخص
« رسالة الحسن الزيات » ورفاقه من الاخصائيين
العرب الذين بذروا في روينا الايمان بقضية العربية
كلفة للعلم والحضارة في مصر الحديث فكان
للمفاهيم الجديدة وتعابيرها الطريفة صدى عميق
في نفوس نخبة حية من المثقفين المغاربة ما بين
مزدوجي الثقافة وموحدتها . ولاعطاء صورة عن
« رسالة المغرب » التي تبلور فيها الانتاج الفكري
الرصين في المغرب قبل منتصف القرن الحالي
ناخذ العدد الاول (11) من السلسلة الاسبوعية

(11) ونلاحظ ايضا في هذا العدد فراها ابيض هو عبارة من جزء مقال قصته رقابة الحماية لانطوائه
على منصر لم يرقها وكثيرا ما كانت المجلات والصحف الوطنية تصدر بيضاء :

وتحت عنوان «رؤيا» قال الشاعر الاستاذ محمد
الحلوي :

اي دنيا انت يا دنيا الرؤى
يا ملاذ الروح يا نبع النبي ؟
سبحة من سبحات الروح في
أفقك السحري عمر ذهبي

ونسيم مطر منسكب
منك في قلب وجيع متمسب

نمة تخلق من الامه
مبتريا مبدعا للعجب

في مجاليك استقيت الفن من
نبعه الفياض صافي المشرب

وتلقى قلبي اللحن الذي
يتلقى مثله كل نبي

سال في روعي شعاما حالما
غاب في قلبي وروي ادبي

ومن شعر الاستاذ عبد المجيد بن جلون خريج
« جامعة القاهرة » :

يا نديمي اسق نديمك
زده نعمي وحبورا

زده صفوا وسرورا
وخبيلا وشمورا

يا نديمي اسق نديمك
فملا الاكوان خمرا

يتدلح منها الشمور
ثم قل كون كبير

او فقل كون صغير
اوليس الكون سرا ؟

الليالي والمصور
في محيط تتقلب

انها حتماء تصطب
والزمان الفظ يلهب

ظهرها وهي تدور
ومن شعر الاستاذ عبد الله ابراهيم رئيس

الحكومة سابقا :
سر كرمش الكهربا

الشته السنة القضاء

الجديدة (عام 1368-1949) حيث نستشف من عناوين
الابحاث والدراسات الوجيهة الجديدة في الادب
والثقافة في المغرب الناهض فهناك دراسات حول
الانثية ومجزرة الاسلام المعاصرة
وزهراء مجدولين او تنارح العوازل
والمبقرية شذوذ والتثقيب الذاتي ورتاء شاعر مصر
علي الجارم وقصيدة للشاعر المرحوم عبد الكريم بن
ثابت الذي قضى شطرا من حياته في مصر
« وجهك الباسم » وهي من بواكير الشعر المنشور
جاء ليها :

وجهك الباسم لي نعمي وروح وهناك
ورجاء لغزادي كلما عز الرجاء

وشفاء لجراحاتي وسلوى وعزاء
ونعيم ذكرتي نفحة منه الخلود

حين كنا نجعل الدنيا والام الوجود
تملا الفرحة روحينا وبدي وتميد

وكلانا يا حبيبي مثل انفاس الصباح
مثل همس البحر النائم في غود القمر

يتفنى بالاندية

ونقرا في الفهرس العام لسنة 1950 فيفساه
من الدراسات يمطي مجرد عناونها لمحة عن اتجاه
المصطلح العربي في المغرب منها : الشعور والانفعال
- عصامية الادب - صلاتنا الثقافية مع مصر - الفكر
الاجتماعي والفكر النقابي ورسالة الشعر واردة
الشعوب وكياننا الروحي ودفاع عن اللغة العربية
والنزف الثقافي والعلم والشاعرية وثقافة هذا
الجيل ومركب الكمال وشرقية الحضارة المغربية
الخ ..

ونستشف من خلال نماذج شعرية اتجاه الفكر
المغربي الحديث ، وللاستاذ الكبير ملال الفاسي :

مضى الشطر من عمري وانني دالما
حليف هوى مقر وخذن اذى مصدي

واطمح للروحي كبسهم جرحها
فتأين سوى صدي وتأين سوى ردي

واطلب عقلي منجدا في كفاحها
ولكنها تظني على العقل في الحد

تجادبني امواها وتمد لي
ظلالا من الالوان لامعة المد

نبراته وقراقية
مثل الزلال بلا وتر
وجداول فوارة
يلفون بصفتها الزهر
والورد بلبل خده
فطرات ابداء الحر
في مثل حبات الجليد البيض
او سقطت الصدر

تلك نماذج من نتاج الفكر المغربي في مختلف
المصور وخاصة في الحقبة الحديثة تعطينا صورة من
تطور الفكر في اوانه الطريفة وانكاساته التي تشرق
وتخفت على التعبير اللغوي الذي واكب رغم تناسي
الديار تطور الفكر العربي ضمن الوحدة الكبرى .

المؤثرات الدينية

كان تعليم القراءان والفقهاء هو الانطلاقة الاولى
لتعريب الجهاز الديني في المغرب الاقصى حيث اناط
طارق بن زياد بسبعة وعشرين من العرب رسالة
تلقين مبادئ الشريعة الاسلامية الى الجيش البربري
ثم عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية وما
لبثت الدعوة ان تقلصت بسبب الاضطرابات
السياسية بين الامويين والعباسيين فظهرت في
الميدان فرق الخوارج التي نقلت اراءها التحريرية
بعزلة بالقراءان والحديث ولعل انتشار الفكر القراءاني
في الوسط البربري هو الذي حدا مؤسس النحلة
البرهغاطية الى وضع قرءان بالبربرية في ثمانين
سورة اطلق عليها اسماء للانبياء كآدم ونوح او
حيوانات كالجمل والديك والحجل والجراد او
الفاظ اخرى مقتبسة من القراءان كهاروت وماروت
وابليس والحشر وقد توثقت الصلة بين المغرب
والشرق منذ عصر التابعين حيث ارتحل العالم
سكوا بن واسول والد امير سجلماسة المدراري الى
المدينة لاخذ العلم وربما العقيدة الخارجية من
عكرمة (1) مولى ابن عباس تمزنت دولة الضغرية
الخارجية في الصحراء المغربية الى منتصف القرن
الرابع حيث استعالت في عهد الناصر لدين الله الى
امارة سنية تخضع للمذهب المالكي الذي انتشر في
مجموع اصقاع المغرب اذا استثنينا فلولا معدودة من
الفرق ظلت تنافس الخوارج كالثبينة الموسويين

فانا هنا نسوي اندفاع
ليس يحكمها ذكاء
فصل النجوم لو النجوم
تجيب في لغة الضياء
وسل الصخور الجائحات
بدون ياس او رجاء
وسل الصباب الضخم يزحف في انخفاض واعتلاء
وسل الرياح الهوج تبدو بين عنف والتواء
يا ليت شعري ما القضاء وكيف الضماني القضاء ؟
امصير اتماب الشعوب وما ينته الى القضاء ؟
ومن شعر ادريس حسن العلمي من قصيدة
طويلة بعنوان « الصفاء » :

لدى منبع النور مهد السناء
زها الفجر روتقه والسماء
وفي صفحة النهر نائمة
يلمس النسيم ورقص الضياء
وبين الخمائيل اطيارها
تطربها بلديد الغناء
وعند المروج وعطر الزهور
وعند الهضاب وسحر المساء
نشدت لروحي الرضى والصفاء
ومن شعري النادر في صباي :

النور بدد ما اعتكر
لما بدا ضوء القمر
والارض في جنباتها
مرف الريح قد انتشر
واتساح في الروض المنعم
خده موج البشر
متناكرا متزاوجا
مستمرنا حلو السمير
فالجر يفتاه السناء
ببرقة تجلو النظر
والقلب يخفق نشوة
فيشع بالزهو البصر
والنفس تبس فيضها
فتزاحمت فيها الفكر
والطير يشدو زاهيا
من فوق افنان الشجر

(1) ذكر ابن خلكان ان عكرمة كان بربريا يرى واي للخوارج .